

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطارقة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بقعده البرد في بيته كما يقعدنا - حتى في بلاده التي لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كمعدنا به هنا وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى «فهواتهم» أو «مقاهيمهم» . كما يريدوننا أن نسميها - قلما تكون إلا في بيتان أو كما يقول ابن الرومي : « في » ميادين يخترقن بسانيه - من تمس الرؤوس بالأهداب^(١) ولا أعرف كما قلت تمليلاً لهذا الاختلاف في الطباع ؛ وأحسب أن اعتدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالوجود ولا يفرى بغشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس في المدينة ما يزده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محلاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ وما يساعد على الفناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذي يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يحظىها فيها ؛ والمناظر في الريف واحدة أو هي متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة رجي . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولكن الانجليزى شأنه غير شأننا ، فإن جو بلاده دائم الثقل ، وهو مع قلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزى الى اشتياق الريف ويفر به بتصور سحره وبيعه على التماسه ونشده حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكمتها لنا في هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر في هذا ولا نكران أننا تغيرنا . فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن ، ولكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة . ومثلنا في هذا أم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أم الشمال كالانجليز والاسكندناويين والألمان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طابع ، وما هو بذلك

ابراهيم هيب القادر المازنى

(١) البيت في الأصل « من ميادين الخ »

ليس غريباً أن تقرأ في التاريخ الاسلامى أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانية أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأمراء النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولكن ربما يبدو غريباً أن يقرن خليفة مسلم بنصرانية تنتهى الى أسرة من الأقباط ، وأن يكون له بين أقباط الكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخوالة ؛ تلك هي حالة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد الميز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر تنتشع بصفتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الدميمين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً في علائق الدميمين بالدولة ، وفي ارتفاعهم الى أرق مناصبها ؛ بل نرى في خلافة الميز لدين الله وولده العزيز ثبناً حافلاً من الوزراء والكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب في البلاط وفي الحكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كاس ؛ وفي عصر الميز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصراني هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولى أعمال الشام يهودياً يدعى منشأ ؛ وفي عهد الميز والميز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته في عصر الميز حيث استولى الوزراء والكتاب الدميميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسة المتطرفة في التسامح والمطاف أثر سيء في المجتمع المصرى ؛ وتنقل الرواية إلينا في ذلك قصة خلاصتها أن الميز بالله رأى ذات يوم في طريق الركب الخلافي امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامه . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزاراً ، وإذا في الرقعة ما يأتى : « بالذى أعز اليهود بمنشأ ، والنصارى بعيسى

السادسة والنشرين من عمرها ؛ وقد حملت رسالته في التسامح بعد ذلك في فرص كثيرة ، ولا سيما بعد مصرع أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ

وتذهب الرواية الكنسية إلى أبعد من ذلك ، فتقول لنا إن هذه السيدة النصرانية هي أم الخليفة الحاكم بأمر الله ولد العزيز ، وتنفرد بهذا القول الرواية القبطية المعاصرة ، وتقول لنا بالنص ما يأتي : « وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولدًا آمن سرية له رومية وجلس في الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ؛ وكان للسرية المذكورة التي هي أم الحاكم أخ اسمه أرساني فجعلته بمناتها بطرك الملكية... »^(١) ولكن الرواية النصرانية تنقل إلينا في غير موطن أن هذه السيدة هي أم ست الملك ابنة العزيز دون الإشارة إلى أنها أم الحاكم ؛ فيقول لنا يحيى الأنطاكي مثلاً ، وهو مؤرخ معاصر تقريباً : « وفي شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير أريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصير أخوه أرسانيوس أيضاً مطراناً على القاهرة ومصر »^(٢) . ويقول لنا

المكي بن العميد في صراحة ووضوح : « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتاً ؛ وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه أرميس (أريستس) صيره بطركاً على بيت المقدس ، والآخر أرسانيوس صيره بطركاً للملكية على القاهرة ومصر ؛ وكان لها من العزيز جانب لأنهما أخوة ابنته »^(٣) ، هذا بينما تلزم الرواية الإسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير إلى أم الحاكم إلا بأنها « الست المزينة »^(٤) . بل يرى المقرئ يشير إلى أرسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الإشارة إلى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك^(٥) . وبما يعمت إلى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هي أم ست الملك ، فإن العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولي عهد المغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففي أي ظروف حصل

ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي ... » فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية في مناصب الدولة ومرافق الأمة ؛ وسواء صحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فإن العزيز لم يلبث أن أدرك خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبة إمامتها المذهبية ، فانقلب إلى معارضة الدميمين ، وقبض على الوزراء والكتاب من النصارى واليهود ؛ ولكنه عاد فأفرج عنهم بعد أن اتخذ بعض الضمانات التي تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم في سياسة الاصطفاء

وتجمع الروايات المعاصرة على أن جنوح العزيز إلى هذا الأمر في التسامح نحو الدميمين يرجع من وجوه كثيرة إلى نفوذ زوجه أوسريته النصرانية ، وابنته منها الأميرة ست الملك ؛ وكانت فتاة عاقلة حازمة يحبها والدها العزيز ويستمع إلى نصيحها في كثير من الأمور ؛ وأخيراً إلى نفوذ صهره أخوى زوجه ، وهما حبران كبيران تبوأ في عصر العزيز أرفع المناصب الكنسية

وهذه القصة : أعنى قصة زواج العزيز من سيدة نصرانية ، قصة يمازجها شيء من الغموض والاضطراب ، وتنفرد بتفاصيلها الرواية النصرانية ، ولا تكاد تشير إليها الرواية الإسلامية ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه السيدة زوج العزيز أو سريته ، كانت جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة ؛ وكان لها أخوان هما أرسانيوس أو (أرساني) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ) وعين أرسانيوس في نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ)^(١) وكان لهما من الخبرين بلارب نفوذهما في بلاط يرتبط معها بأواصر المصاهرة ، وفيه أختها « زوج الخليفة » وابنته منها الأميرة العاقلة المحبوبة ست الملك ؛ وكانت عند وفاة والدها العزيز في نحو

(١) المخطوط الكنسي للشارح

(٢) الانطاكي ص ١٦٤

(٣) ابن العميد ص ٢٤٧

(٤) راجع خطط المقرئ (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٠٧

(٥) المخطوط ج ٤ ص ٢٩٨

(١) راجع المؤلف الكنسي (القبطي) المسمى « بدير البيرة المقدسة » والملحق بكتاب ساويرس بن القنق (سير الآباء البطاركة) وقد اقتنت دار الكتب أخيراً منه نسخة قنوقرية كاملة (رقم ٦٤٣٤ ح) وتاريخ الانطاكي ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٥ ؛ والمكي بن العميد ص ٢٤٧

هذا الزواج أو التسرى ؟ وفي أي ظروف وقعت هذه الجارية الرومية المصرية في يد البلاط الفاطمي بالمغرب ؟ هذا ما لا نوضحه لنا الرواية ، ومن جهة أخرى فإن الرواية الكنسية (القبطية) الماصرة هي التي تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هي أيضا أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية الماصرة والمناخنة أنها هي أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هي أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية في ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاما (سنة ٣٧٥ هـ) ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن يدعى محمداً وقد توفي طفلاً^(١) ؛ وفي ذلك أيضا ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب في هذا القول الذي تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وأن « السيدة العزيزية » التي تشير اليها الرواية الإسلامية بأنها أم الحاكم هي سيدة أخرى ، وأنها هي الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصا إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى ، وهو موقف عطف دائما وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لها ، وسمت الرواية الإسلامية في هذا الوطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الإسلامية تقدم إلينا نبئا حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

وتقدم إلينا الرواية النصرانية بعض تفاصيل عن حياة هذين الحبرين الكبيرين أريسطيس وإرسانيوس صهرى الخليفة العزيز بالله ؛ فتقول لنا إن الطائفة الملكية اشتد ساعدها في عصر العزيز من جراء هذه المصاهرة الملوكية ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وإن البلاط الفاطمي في أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، وفي عهد مدبر دولته برجوان الصقلي ، انتدب أريسطيس بطريرك بيت المقدس ليكون سفير الحاكم إلى قيصر قسطنطينية باسيل الثاني في سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) ، ولكي يعمل على

عقد الهدنة والصداقة بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن استطلت الحرب بينهما في الشام منذ عهد المعز لدين الله ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية مع رسل القيصر ، وقام بالمهمة ، وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي في سنة ٣٩٤ هـ^(١)

أما إرسانيوس فإنه لبث بطريركا للملكية زهاء عشر سنين ؛ وكان في أواخر أيامه قد اعتزل الحياة ، في دير القصير الذي شيد في بعض ربي المقطم ، وعكف على النسك والتعبد ؛ وفي سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) حينما اشتدت موجة الاضطهاد الديني التي أثارها الحاكم بقوانينه الصارمة ضد النصارى واليهود ، أمر الحاكم بهدم هذا الدير الشهير ضمن ما أمر بهدمه من البيع والأديار الأخرى ، فهاجته الفوجاء ، وقوضت أبنيته ، ونهبت مقتنياته وآثنته ، وأخرج منه إرسانيوس مع باقي الرهبان الساكنين فيه ؛ وقضى إرسانيوس أشهراً أخرى في بعض البيع حزينا على ما أصاب قومه من الخطوب ؛ وفي ذات ليلة من شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ نفذ بعضهم إلى مكانه التواضع وقتلوه سرا ، واحتوت ابنة أخته ست الملك على ما كان له من المال والثياب والذخائر المقدسة^(٢) . ولم تحدثنا الرواية عن قتله أو من أمر بقتله ، بيد أن في هذا الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب في قرابة الحاكم بأمر الله بالحبر المقتول

تلك هي قصة زوج العزيز أوسريقة النصرانية وقصة أخويها الحبرين البطريركين ؛ وهي مصاهرة طريفة فريدة في نوعها ، ولا تذكر لنا الرواية مثلاً آخر يرتبط فيه خليفة مسلم مع بعض خلفاء النصرانية برابط المصاهرة ، وإذا استبعدنا من الرواية ما يتعاق بالحاكم ونسبته لهذه الأم النصرانية ، فإنه ليس ثمة ما يحمل على الشك في جوهرها وتفصيلها . بيد أن الرواية لا تحدثنا عن اسم هذه السيدة الرومية النصرانية التي سطعت في قصر من أعظم القصور الإسلامية ، وفي ظل خلافة تطبعها الصبغة المذهبية بأعقن طابع ، ولا تحدثنا عن مصيرها

(١) الانطاكي ص ١٨٣ و ١٨٤ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ، والمقرئ

ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩

(٢) الانطاكي ص ١٩٧ و ٢٣٧

(١) التويرى — نهاية الأرب — النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب

ج ٢٦ ص ٦١